

الجيش في العصر الاسلامي

بقلم : فواز الحمصي

بعد ان استقرت الامور للمسلمين في المدينة المنورة بعد الهجرة فرض الله تعالى عليهم الجهاد في السنة الثانية . وهكذا أخذ المسلمون في المدينة شكل الدولة الدستورية التي أسسها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وكان لا بد لهذه الدولة من أن تدافع عن نفسها وتحمي ديارها ثم تنشر الاسلام وتعلي كلمة الله في الارض بتأسيس الجيش الاسلامي قوامه جميع المسلمين القادرين على حمل السلاح .

أعداد الجيوش في عهد الدولة الاسلامية :

اختلف تعداد الجيش الاسلامي من أول قيام الدولة الاسلامية وحتى نهايد العصر العباسي .

فقد بدأ الجيش الاسلامي على شكل سرايا ، يتراوح عدد كل منها بين عشرين وستين مقاتلا ، كلهم من المهاجرين ومهمتها استطلاع أحوال قريش ، واعتراض قوافلها .

ولم يؤلف الجيش الحقيقي المعد لمواجهة المشركين وقتالهم ، إلا في غزوه بدر . حيث بلغ تعداده ثلاثمائة مقاتل ، اشترك فيه الانصار لأول مرة . وكانت هذه أول مواجهة حربية بين الطرفين .

وقد ازداد تعداد الجيش في غزوة أحد ، الى الف مقاتل ، مائة منهم من لابسي الدروع ، وفارسان . مقابل ثلاثة آلاف من المشركين ، منهم سبعمائة من لابسي الدروع ، ومائتا فارس .

غير أن هذا الجيش ، تطور في العدد والعدة ، بعد اشتداد بأس المسلمين ، وأخذ الدولة الاسلامية مكانتها في الجزيرة العربية ، كدولة مستقلة ، استطاعت ان تجهز ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة مؤتة ، في السنة الثامنة للهجرة . وبلغ عشرة آلاف مقاتل حين فتح مكة .

أما في العصر الراشدي ، حيث بدأت الفتوحات الاسلامية ، في أطراف الجزيرة العربية وفي الشام وفارس ومصر ، فانه كان من الطبيعي أن يزداد تعداد الجيش الاسلامي ، اثر التوسع وزيادة الدخول في الاسلام . وقد بلغ تعداد جيش اليرموك أكثر من ثلاثين ألف مقاتل مسلم .

وكانت الجيوش الاسلامية تعسكر في بعض المناطق اثر الفتوحات كما حدث بعد فتح العراق . حيث كانت تعسكر في موقع البصرة ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وتسكن الخيام . ولما ازدادت أعدادهم بنيت لهم القرى في ذلك الموقع ، ثم تألفت منها ونشأت مدينة البصرة ، التي بلغ عدد سكانها ايام معاوية مائتي ألف نسمة ، منهم ثمانون ألف مقاتل . ومثلها نشأت مدينة الكوفة أيضا . أما في عهد الامويين ، فلا شك في أن توسع الدولة الاسلامية ، وتكاثر الدخول في الاسلام ، أدى الى ازدياد عدد المقاتلين والجهادين . وقد استطاعت الدولة أن تجهز جيشاً مؤلفاً من أربعين ألف مقاتل ، من قبائل البصرة الخمس فقط في العام ٩٦ هـ . وذلك لاحدى العمليات الحربية في شرق خراسان . ومن الطبيعي أن يزداد تعداد الجيوش في العصر العباسي .

اعطيات الجنود :

زرع الرسول صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين حب الجهاد . وآمنوا انه باب من ابواب الجنة . وعرفوا مكانة المجاهد والشهيد عند الله عز وجل . لذلك اندفعوا لنيل الشهادة أو النصر . وكانت آمالهم في الشهادة قبل الحياة . يجاهدون في سبيل الله يقتلون ويقتلون مقبلين غير مدبرين ، إذ لا ادبار في الجهاد عند المسلمين ، غايتهم الجنة ، وأسمى أمانهم اعلاء كلمة الله في الارض . كانت اعطيات الجنود اول الامر تدفع لهم من الفنائم ولهم أربعة أخماسها . غير أنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ازداد عدد الجنود ، وزادت الحاجة المادية . فكان لا بد من أن يقام ديوان للجنود تدون فيه أسماء المقاتلين وارزاقهم .

ديوان الجند :

كان الخليفة عمر بن الخطاب اول من حقق هذا العمل الكبير . إذ عهد الى عقيل بن ابي طالب ، ومحزمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، بوضع ديوان للجند يحصر عدد الجنود في كل إمارة ، واعطياتهم ، وكل ما يختص بهم . وذلك حسب سابقيتهم في الاسلام وقرابتهم من رسول الله وتفانيهم في الجهاد . وقسم الجيش من أجل ذلك الى عِرَافَات (زمر) . عدد أفراد كل عِرافة عشرة أشخاص . ثم ازداد حتى بلغ ثلاثة وأربعين شخصاً . وبلغ عطاء كل عِرافة زمن عمر مائة ألف درهم في العام . وبازدياد عدد أفراد الجيش ازداد عدد أفراد كل عِرافة . وأصبح العبء في ذلك على بيت المال ثقيلًا ، بعد أن قلت الفنائم . غير أن الدولة أصبحت تعتمد في ذلك على مجموع الضرائب التي تجبها من سكان البلاد المفتوحة كالخراج والجزية والفنائم والفيء والعشر

وفي عهد الدولة الاموية لجأت الدولة الى عقد اتفاق مع بعض القبائل . حيث

تعطي الدولة لها مبلغاً من المال ، مقابل تزويدها بأعداد من الرجال المقاتلين ، حين الحاجة . واستمر هذا النوع من الاتفاقيات ، حتى في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل .

والى جانب الجيش النظامي كانت هناك فئتان من المقاتلة :

الاولى : فئة مأجورة : وهي تدعى عند الحاجة مقابل أجر معين .

الثانية : فئة المتطوعة التي تنخرط في الجيش ، بدافع الحماس ، وحب الجهاد ، دون أجر معين .

مراتب الجيش :

كان الرسول الكريم القائد الاعلى للجيش طوال مدة حياته . وكان يقود الغزوة بنفسه في بعض الاحيان ويعين قائدا من قبله في غزوات اخرى ، إذا كانت الغزوة لا تتطلب قيادته .

وفي عهد الخلفاء الراشدين وما بعدهم ، كان الخليفة القائد الاعلى للجيش باعتباره خليفة رسول الله ، واليه يعود أمر تسييره وتجهيزه وعلان الحرب . وكثيراً ما كان الخلفاء يعهدون الى أناس غيرهم في قيادة الجيش . وخاصة إذا تطلب الموقف بقاء الخليفة في مركز الدولة . أو إذا تعددت الجيوش ، كما حصل في تعيين الخليفة أبي بكر الصديق قادة للجيوش الاسلامية التي حاربت المرتدين . وكذلك في تعيين الخليفة عمر بن الخطاب قادة لجيوش الفتح . وكذا الامر في عهد الخلفاء الامويين والعباسيين . وأما في الولايات فقد كان الوالي القائد العام للجيش في ولايته .

وكان القائد من ذوي الخبرة الادارية والدراية في القتال ، والبأس في مواجهة الاعداء . يقود جيشه بشجاعة واقدام . يحمل الراية ويتقدم الصفوف . فإذا قتل تقدم من يحمل الراية . ولا ينهزم الجيش عند مقتل قائده (كما حصل في غزوة مؤتة) .

ويعين القادة قواداً ، يأمرون بأمرهم ويشرفون على سير عمليات القتال ، وتنسب الى الخليفة عمر بن الخطاب فكرة ترتيب الجيش في مراتب . وكتب مرة الى قائد جيشه في فارس ، يأمره أن يقسم جيشه الى عشرات ، وأن يعين عليهم العرفاء والامراء . وكان يلي الامير في الرتبة ، أمار الوحدات (وحدات التعبئة) ، ويليهم العرفاء وحملة الرايات ، وأخيراً الرؤساء القبليون . وكانت هناك وحدات ملحقه على الجيش ومتممة ، كالاطباء والقاضي ، والداعية وترجمان يحسن لغة العدو ، وكاتب مراسلات .

التشكيل العسكري :

كان التشكيل العسكري أيام الدولة الاسلامية ، هو التشكيل المعروف باسم التعبية ، وبموجب هذا التشكيل ، ينقسم الجيش الى خمسة اقسام وهي : **القلب** : وفيه أمير الجيش ورجال حاشيته ، ثم **الجناح الأيمن** ، ثم **الجناح الأيسر** . ثم **المقدمة** : وهي تتكون من الرجال الأشداء ، ولهم عملهم الخاص . واخيراً **الساقة** : وهي الى الخلف ومهمتها حماية المقاتلين من الخلف . وحمل **المؤن** ، والذخائر ، والعتاد وأدوات الحصار الثقيلة . ولكل هذه الاقسام قائده الخاص ، وهؤلاء القادة يتبعون القائد العام ويتلقون الاوامر منه .

والى جانب هذا التشكيل الخماسي . كانت هناك وحدات منفصلة . أهمها : **فئة المجردة** : وهي فئة خفيفة الحركة ذات أسلحة خفيفة . ثم هناك **فئة الطلائع** : ومهمتها الاستكشاف امام الجيش والتعرف على اوضاع وقوة العدو . وكانت جميع هذه الاقسام تقاتل معاً . وقد تقاتل منفردة حسب أهمية المعركة .

وقد سار المسلمون في قتالهم حسب هذا التشكيل منذ موقعة بدر وبقية عدة قرون . وفي اليرموك نرى خالدًا يقسم الجيش الى كراديس في خطة قتالية منظمة ومنسقة . ولكن ضمن التشكيل الخماسي المذكور .

وكان من تقاليد القتال أن تقام مبارزة بين أبطال الفريقين المتحاربين ، قبيل المعركة ، وتحتدم المعركة على اثرها .

ولا بد لنا هنا من أن نذكر أن هؤلاء المقاتلين لم يتلقوا تدريباً عسكرياً خاصاً قط . وإنما كان المراس والميران والاشترار بالمعارك ، يعطيهم درساً جيداً ، وتفهماً لاصول القتال في ذلك العصر .

الأسلحة :

بالرغم من حداثة الجيش الاسلامي في صدر الاسلام ، وافتقاره الى العدة والعتاد ، بالنسبة لجيوش الدول الكبرى المجاورة ، فقد أصبح بمدة يسيرة من أقوى وأقدر الجيوش المعاصرة . وأصبح يتمتع بالمبادأة والسيطرة . وقد تطورت أسلحته بمرور الايام والاتصال مع الدول الأخرى . ويمكن أن نذكر حسب ما جاء في المصادر أن سلاح المشاة كان لا يعدو الحراب والرماح والسيوف ، وكانت أسلحة الفرسان ، تتألف من القسي والحراب أو السيوف . وكانت السهام ، السلاح الرئيسي للرماة . ويذكر ابن الأثير ، أن المقاتلين كان يحملها بعض المحاربين . أما لباس المحارب فكان الخوذة والدرع ويحمل الترس لحماية نفسه من طعنات الرماح والسهام . ويرتدي القادة والأمراء درعاً سابقاً .

المنجنيق والمقلع :

استعمل المنجنيق والمقلع في حصار دمشق سنة ١٣ هـ . واستعملها محمد بن القاسم في حصار الديلم من بلاد السند . والمهمة الاساسية لها كسلاح هي رمي الحجارة الثقيلة على أسوار العدو وما وراءها . وقد استعملت أحيانا لرمي النار والنفط المشتعل .

وقد استعمل صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين آلة حربية تسمى (الزيار) وترمي أعداداً كبيرة من السهام الثقيلة دفعة واحدة . ويذكر ابن الاثير (الزمبورك) مثلها .

الديابات :

تستعمل لحصار المدن . وهي برج خشبي متحرك ذي طبقات . في كل منها عدد من الجنود . مهمة رجال الطبقة السفلى هدم السور او احدث ثغرة فيه بواسطة المعاول والفؤوس والمثاقب ، ويحميهم رجال الطبقة العليا بسهامهم . وهناك أداة أخرى للحصار تسمى (الكبش) . وكذلك السلال الطويلة للصعود الى أعلى السور .

التحصينات :

كانت أولى التحصينات التي استعملها المسلمون للدفاع وحماية المدن ، هي الخندق المضروب حول المدينة المنورة بأمر من الرسول الكريم وباقتراح سلمان الفارسي .

غير أن أعمال التحصين تطورت فيما بعد . وبدأت الاسوار تبنى حول المدن ، ثخينة من مواد صلبة ، ومحصوة بألواح الخشب . ولها بوابات ونوافذ تحصن بالأسلحة . ويقف الرماة المدافعون غالباً على ظهر السور لرمي النبال والتصدي للمتسلقين ، وخلف الابواب والنوافذ .

وبعد اتساع الدولة الاسلامية ، ووجود الاعداء حولها ، وتسلسل الحروب معهم ، عملت الدولة على ايجاد الثغور وهي المناطق المجاورة لارض العدو . فكانت الثغور خط المواجهة الاول . ولأجل العمليات الطويلة الامد ، وكانت تبنى فيها القلاع المحصنة . وكانت تعرف باسم العواصم . وهي مدن محصنة بالاسوار والخنادق وأعمال الدفاع الأخرى .

وبعد : فهذه نبذة يسيرة عن تطور الجيش في عهد الدولة الاسلامية . ذلك الجيش الذي ضم رجالاً عاهدوا الله وصدقوا العهد . نشروا الاسلام وحملوا الحضارة والسلام الى بلاد كانت لا تعرف النور والحق بل الظلم والظلام .